

البعد السياسي في نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: المفهوم والمنهج

معروفى أحمد: أستاذ محاضر "أ"
كلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية
جامعة الجزائر 3

تاريخ قبول المقال: 2019/06/16

تاريخ إرسال المقال: 2018/11/28

ملخص

تهدف الدراسة الى الكشف عن الدور السياسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ظل الاحتلال الفرنسي للجزائر، وهذا رغم الجدل الحاد الذي ما زال يطبع النقاش الى يوم الناس هذا بين الدارسين والكتاب حول الموضوع، فمنهم من أنكر على الجمعية تعاطيها للسياسة واقتصارها على النشاط الاجتماعي والتربوي فقط، في حين أن آخرين أقروا باشتغالها بالمسائل السياسية واستدلوا في ذلك مشاركتها كطرف فاعل الى جانب الحركات الوطنية الأخرى في عدة محطات خصصت لمناقشة قضايا الأمة السياسية.

انطلاق الجمعية في نشاطها الوطني متعدد الأبعاد من منطلق أن احتلال فرنسا للجزائر كان شاملا، مس الأرض والإنسان والمعتقد، فحتمًا تكون المواجهة معه، بمنظور أعلام الجمعية، مواجهة شاملة تتعدى المجال الديني والتربوي المحض لتشمل الميدان السياسي.

خلصت الجمعية بعد قرأتها للواقع الجزائري ومشكلاته التي حالت دون تحرر الشعب الجزائري من قيد الاستعمار، بعد مضي قرن من الاحتلال الفرنسي للجزائر (1830/1931)، الى النتيجة مفادها أن مكمن الداء وعلاجه يمرحتمًا عبر نشر لحركة إصلاحية شاملة متعددة الجبهات والأهداف، لا تفريق فيها بين الدين والعلم، وبين التربية والأخلاق، وبين السياسة والاجتماع، أي العمل بأفق ترسيم لمشروع نهضوي شامل يهدف

إلى تجهيز جيل متأصل بمقومات هويته الوطنية، متشبع بالروح الوطنية، متعطش للحرية والاستقلال ومهيئ لرفع التحدي عندما تحين ساعة مواجهة المستعمر الحاسمة. **الكلمات المفتاحية:** جمعية العلماء المسلمين الجزائريين - السياسة - النهضة - الهوية الوطنية - الوطن الجزائري - الاستعمار - المنهج - الواقعية - المرحلية.

Abstract

The study aimed to reveal the role of Politics Algerian Islamic Oulemas Association on the French colonization of Algiers, and this is despite the controversy between the scholars and writers on this subject. Some declare that the organization's major role is education and social activities; others believe that it occupies many politics subjects as it has a big part alongside other national movements.

The association began its multi-dimensional national activity from the standpoint that France's occupation of Algeria was global. It touched the environment, human being and religious. So definitely, the confrontation will be beyond the religious and education field to include the politics sphere.

The duration of the organization maintained from 1830 to 1931 by spreading a comprehensive reform movement in order to aware the young people and forms a generation that adheres to its national identity, be saturated with the national spirit, and fight for freedom and independence.

Key words: Association of Algerian Muslim Scholars - Politics - Renaissance - National Identity - Algerian homeland - Colonization - Methodology - Realism - Periodicity.

مقدمة

باطلاعنا على ما كتب عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (1931-1956) إلى يوم الناس هذا، نجد الكثير منها يركز أصحابها على نشاطها الديني والتربوي حصريا دون الاهتمام بنشاطها السياسي الذي ما زال لم يأخذ حقه من البحث والدراسة في تقديرنا، وذلك بسبب الغموض الذي يلف هذا الموضوع بين الباحثين والمؤرخين الذين تفرقوا إلى فرق في مسألة مدى تعاطي الجمعية للنشاط السياسي بأن الاحتلال الفرنسي الجزائر وما دورها في العمل الثوري؟

بيد أنه يوجد من بين هذه الفرق من ينكر على جمعية العلماء المسلمين تعاطيها للنشاط السياسي وذلك بحجة أنها جمعية إصلاحية اقتصر اهتمامها ونشاطها في المجال التربوي والثقافي حصريا ولا امتداد لها في المجال السياسي قط، بل ذهب بعضها إلى أبعد من ذلك حين أنكر أصحابها على الجمعية وقوفها إلى جانب الثورة التحريرية

المباركة واتهموا أعلامها بالتقاعس والسلبية تجاهها. هؤلاء نسوا أو تناسوا بأن الثورة الجزائرية قبل أن تتجسد إلى نزال مسلح تحت قيادة جيش التحرير الوطني تبلورت ونضجت كفكر وفلسفة ومرجعية في أحضان الحركة الوطنية في مجموعها، حتى صارت في ظلها مشروعاً ثورياً حضارياً قابلاً للتجسيد على أرض الواقع. وتعد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، باعتبارها فاعل من فواعل الحركة الوطنية الأساسيين آنذاك بفضل نشاطها متعدد الأبعاد والأهداف كما سنبين تلاحقاً، واحدة من أكبر المساهمين في بلورة المشروع الثوري الذي ترسم في بيان أول نوفمبر 54 المخلد لانطلاق الثورة التحريرية، (حيث كان لها الفضل في أحداث ثورة في الأفكار وتغييراً في العقول، ويقظة في النفوس). فما كان للثورة الجزائرية أن يكتب لها النجاح برأي المختصين، لولا حمل هذه الأخيرة لمرجعية وطنية أصيلة وأهداف سياسية محددة، وأبعاد حضارية واضحة المعالم واستعداد النفوس لها، حيث باركتها والتفت حولها كل القوى الحية للمجتمع الجزائري. وهذه ليست قاعدة خاصة بالثورة الجزائرية بذاتها بقدر ما هي قاعدة عالمية ميزت كل الثورات العالمية الكبرى التي شهدها العالم قديماً وحديثاً، مثل الثورة الفرنسية، والثورة البولشيفية، والثورة الصينية، والكوبية... حيث سبقتها ثورات معرفية فلسفية نهضوية نظرت لها وأطرت مسارها وحددت مراحلها وأهدافها. وعليه، فالمشروع الحضاري الذي تبنته الجمعية في عهدها وحظيت بتجسيده بعقلانية ومنهجية على مراحل على أرض الواقع، يمثل من وجهة مؤيدي مسارها النضالي، جزء من المشروع الثوري التحرري الذي جسده جبهة التحرير الوطني ميدانياً بداية من نوفمبر 1954 الرمز. فالجبهة في هذه الحالة وبالأحرى (مشروعها الثوري التحرري) بوصف المناضل ابن طوبال "لا تمثل سوى تلك الاستمرارية التاريخية لنضال الحركة الوطنية في مجموعها وخاصة حزب الشعب / حركة انتصار الحريات الديمقراطية التي ورثت عنه الرجال والمبادئ والشعارات والمنهاج والممارسة".¹ وتأسيساً على هذا المعطى، نعتبر أن جبهة التحرير الوطني الرمز لم تتبثق من فراغ في الميدانين الفلسفي والسياسي عند تأسيسها، بل هي نتاج محصلة مرحلة مهمة في مسيرة النضال الوطني الطويل، ولحظة دالة على وعي نخب الحركة الوطنية الجزائرية بمكوناتها واتجاهاتها المختلفة اتجاه التاريخ وتحدياته الجديدة، حيث أثمرت معالمة في الحصول على إجماع شبه مطلق لهذه النخب على مطلب التحرر والاستقلال لا سيما بعد مجازر الثامن ماي 1945 الرمز،¹ حتى وآن تفاوتت حدة الدعوة إليه وتباينت سبل وطرق إنجازها من تيار سياسي إلى آخر.

وعليه، وبناء على ما سبق، يتضح أنه من بين القضايا الشائكة التي لا تزال محل نقاش ولم يفصل فيها بعد بين الدارسين والمهتمين بتاريخ الجزائر الحديث، إشكالية مدى تعاطي الجمعية للسياسة؟ ومدى مساهمتها في الكفاح الثوري؟

وتفكيكا لخيوط الإشكالية وتعقيداتها، نستعين بجملة من التساؤلات الفرعية يليها مجموعة من المنطلقات تحمل صبغة الفرضيات ونصيفها جميعا بالتتابع كالتالي:

التساؤلات

ما هو مدلول السياسة وما مكانتها في أدبيات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؟ وما هي القضايا التي شغلت اهتمام علمائها وأولتها الصدارة ضمن نشاطها؟ وكيف نقرأ قراءة صحيحة لمنهجها النضالي؟ وكيف نقيم دورها السياسي والتربوي في عملية التحرر والاستقلال؟

المنطلقات

- ننتقل من كون أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تعاطيها للنشاط الإصلاحي تجاوزت إشكالية العلاقة بين الدين والسياسة كما هي مطروحة عند الغرب المسيحي. فالإسلام عند المسلمين العرب وغير العرب لا يفرق بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية، فهو دين ودنيا معا. فالسياسة في هذه الحالة هي جزء من الدين وفرع من فروعها، فالجمعية بنشاطها الديني التربوي المركز تتعاطى في ثنياه العمل السياسي بطريقة أو بأخرى.

- ننتقل من القاعدة التي أضحت الآن من المسلمات بأن السيادة الوطنية المغتصبة بفعل الاحتلال الفرنسي للجزائر في ذلك التاريخ المشؤوم (1830/07/05) بنيت على مجموعة من الثوابت أهمها الأرض والدين الإسلامي واللغة العربية باعتبارهم رموز الشخصية الجزائرية الأصيلة، وأن السلطات الاستعمارية لضمان وجودها الأزلي في الجزائر، انصب عملها في اتجاه محو وإلغاء هذه الموز، وعليه، فنشاط الجمعية سينصب بالدرجة الأولى نحو استرجاع هذه الرموز وإعادة تأهيلها باعتبارها تمثل سدا حائلا ضد الفرنسة والتمسيح.

- ننتقل أيضا من كون أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعملها الإصلاحي الذي انتهجته ووضعت في سبيله معظم جهودها، وهو التربية والتعليم وصيانة الدين الإسلامي ومحاربة الآفات الاجتماعية، يعد من صميم النضال السياسي التحرري.

- ننتقل أخيرا من كون أن دفاع الجمعية عن مقومات الشخصية الجزائرية من دين ولغة وتاريخ وحب الوطن، وباعتمادها على منهجية ترتيب الأولويات، قد ساهم بشكل كبير في تشكل الأرضية (المرجعية) التي على أساسها انطلقت الثورة التحريرية.

السياسة في أدبيات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

على النقيض من رؤية الفكر الغربي الذي يفصل بين السياسة والدين إلى درجة أنه راح يصف الدول الغربية بدول السياسة العلمانية التي تقوم على أساس العقل والعقل وحده وفق تصنيف ابن خلدون، فإن الفكر الإسلامي، وهو الحال بالنسبة لرواد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يرى عكس ذلك، أي أن الدين والسياسة يمثلان وجهان لعملة واحدة، فلا حدود تفرق بينهما، فالدين هو الإطار الكلي الجامع الذي جاء ينظم حياة الإنسان في بعديها المادي والروحي، والديني والآخرين، المدني والسياسي، وعليه، فالسياسة في الفكر الإسلامي ليست سوى جزء من هذا الكل امتثالاً لأية القرآنية: "قل أن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين." {الأنعام 162}

وفي تبريره لمبدأ الجمع بين الدين والسياسية كمرجعية وممارسة في أدبيات الجمعية يقول البشير الإبراهيمي في هذا الشأن "إذا كان الإسلام ديناً وسياسة فجمعية العلماء دينية سياسية، وهذه المسألة لا تحتاج إلى سؤال ولا إلى جواب، وجمعية العلماء ترى أن العالم الديني، إذا لم يكن عالماً بالسياسية، ولا عاملاً لها، فليس بعالم، وإذا تخلى العالم الديني عن السياسة فمن يصرفها ويديرها؟"²

ويضيف الراوي في معرض حديثه عن إشكالية السياسة ومفاهيمها ومدلولاتها في أدبيات جمعية العلماء فيقول: "ان جمعية العلماء تعمل لسياسة التربية لأنها الأصل، وبعض سياساتها (يقصد قادة الأحزاب الوطنية دون ذكر الاتجاه بحد ذاته) مع الأسف، يعملون لتربية السياسة ، ولا يعلمون أنها فرع لا يقوم آلا على أصله ، وأي عاقل لا يدرك أن الأصول مقدمة على الفروع ، وأن الاستعمار لأفقه وأقوى ذكاء ، وأصدق حدسا من هؤلاء حين يسمي أعمال جمعية العلماء سياسة ، وما هي بالسياسة في معناها التقليدي ولا قريبة منه ، ولكنه يسميها كذلك لأنه يعرف نتائجها وأثارها."³ وعليه، فالمشروع الإصلاحية للجمعية بحكم خصوصيته الفكرية والفلسفية المستمدة من رسالة الدين الإسلامي السمحاء (الكتاب والسنة) لم يفصل بين الجانب الاجتماعي جهة وبين الجانب السياسي من جهة أخرى، وذلك اعتباراً أن الإسلام منهج حياة، به تنهض الأمة الإسلامية وتزدهر حيث يسمح للإنسان في كنفه بتدبير شؤونه الدينية والدينية معاً امتثالاً لحديث الرسول (صلى): "فما كان من أمر دينكم فألي، وما كان من أمر دنياكم فشأنكم به، وأنتم أعلم بشؤون دنياكم". وبهذا الاعتبار والتقدير المستمد من روح العقيدة الإسلامية، لا وجود لحدود بينة تفرق بين الدين والسياسة في أدبيات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. فالعمل الاجتماعي بمفهومه

الشامل هو عمل سياسي في حقيقته، والعمل السياسي مجاله وفضائه الأول هو المجتمع، وكلاهما يهدفان إلى خدمة الأمة بصدق وإخلاص والنهوض بها إلى بر الأمان. وعليه، فالجمعية قدمت الإصلاح الديني والتربوي باعتباره الأصل، وجعلته كمدخل أساسي للإصلاح السياسي والمدني، وبصورة أخرى، المنطلق المبدئي في علاج مشكلات الأمة ونهضتها، وهذا ما يتوافق كلياً مع مدلول "السياسة" في الفكر الغربي المعاصر الذي يعرفها بأنها "فن إدارة المجتمعات الإنسانية والسهر على رقيها المادي والمعنوي"، أو هي "القيام على الشيء بما يصلحه"⁴.

تعاملت الجمعية مع تحديات المرحلة الاستعمارية بواقعية وعقلانية وبعد النظر، وجعلت من الإصلاح الديني والتربوي المدخل الأساسي للإصلاح السياسي والمدني تأثراً بالحركة الفكرية والإصلاحية في المشرق العربي عموماً وبالنهضة المصرية خصوصاً.⁵

وقد تجلت واقعية جمعية العلماء في مبدأ الاقتداء بما عرفته أوروبا في القرن الثامن عشر (عصرًا لنهضة) حيث شهدت مجتمعاتها، بفضل ثلة من نخبها المتورين، قيام ثورة شاملة على النظام القديم (العصور الوسطى) في تجلياته الفكرية والفلسفية والثقافية والاجتماعية والسياسية، ومن أثارها أنها أوصلت المجتمعات الغربية إلى ما هي عليه الآن من حيث التمدن السياسي والحضاري وقيام الدولة الحديثة. وقد أطلق على هذه المرحلة في أدبيات الفكر الغربي "بعصر التنوير".⁶

واستثناساً بتجربة النهضة الأوروبية وما أفرزته من تحولات عميقة في بنى المجتمع الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية كان فضلها عظيم كما أسلفنا الذكر، في انتقال المجتمعات الأوروبية من عصر الانحطاط والظلام إلى عصر الأنوار والحداثة، بادرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من جهتها وذلك عبر روادها الميامين، إلى تحديد المشكلات التي حالت دون تحرر الشعب الجزائري من السيطرة الاستعمارية لا سيما بعد مضي قرن من الاحتلال الفرنسي للجزائر (1830/1931)، وخلصت بعد قرأتها للواقع، قراءة مبصرة بالوصف والمقارنة، وفهمها بعمق لأبعاد المشكلة وسبل حلها، إلى النتيجة مفادها أن مكمن الداء وعلاجه يمر حتماً عبر نشر لحركة إصلاحية شاملة متعددة الجبهات والأهداف، لا تفريق فيها بين الدين والعلم، وبين التربية والأخلاق، وبين السياسة والاجتماع، أي العمل بأفق ترسيم لمشروع نهضوي شامل يهدف بالأساس إلى إعادة آحيا لمقومات الشعب الجزائري من دين ولغة وأخلاق وتاريخ وتقاليد التي ماتت أو ضعفت أو تراخت بسبب "تسلط الاستعمارين"⁷ بسياستهما على رقاب الأمة الجزائرية المسلمة بتعبير

البشير الإبراهيمي نائب رئيس الجمعية. وصفوة القول في هذا المحور، إن السياسة في خطاب الجمعية طغى عليها البعد الشمولي حيث يشمل مدلولها كل جوانب الحياة الدينية والدينية، الزمنية والروحية، وما التركيز على العامل الديني والتربوي في نشاط الجمعية إلا كونه يمثل الوصفة المثلى في تقدير علمائها لعلاج مظاهر التخلف والانحطاط التي سكنتا لمجتمع الجزائري بفعل الثالث المدمر: الفقر والجهل والتنصير الذي حمله مخطط فرنسا الاستعمارية وكرسته أدارته واقعيا على الشعب الجزائري بعمية رجال الطرق الصوفية الذين أصبحوا أداة طيعة في أيدي الإدارة الاستعمارية، وحراس آمنين لمصالحها في الجزائر. وهذا ما جاء تأكده من طرف رائد الإصلاح وقائد الجمعية عبد الحميد بن باديس حيث يقول في هذا الصدد: "مبدؤنا في الإصلاح السياسي هو المحافظة التامة على جميع مقوماتنا ومميزاتها كأمة لها مقوماتها ومميزاتها، والمطالبة بجميع حقوقها السياسية والاجتماعية لجميع طبقاتنا دون الرضا بأي نقيض أو تمييز".⁸ وهذا الذي قرره ابن باديس عن مفهومه للعمل السياسي يؤكد نأثبه في إدارة الجمعية البشير الإبراهيمي بأوضح بيان ومعان شارحا مبدأ التدرج في العمل والنضال، كونا لسياسة عنده هي نضال واستماتة وتضحية بمنطق انتهاج مبدأ المحلية والتدرج في المطالب بداية بـ "إحياء للمقومات التي ماتت أو ضعفت أو تراخت من دين ولغة وأخلاق وتاريخ وتقاليد وتصحيح قواعدها في النفوس، ثم المطالبة بالحقوق الضائعة في منطق وإيمان، ثم الإصرار على المطالبة في قوة وشدة، ثم التصلب في الإصرار واستماتة وتضحية".⁹

وبناء على هذا المفهوم للسياسة عند رواد الجمعية ومنطق تفعيل دوره في نشاطها، نستخلص أن المقاربة التي اعتمدها الجمعية في سبيل إصلاح ونهضة المجتمع الجزائري وتحرره من قيد الاستعمار، تتعدى الجانب الاجتماعي التربوي المحض لتشمل الجانب السياسي الذي يمثل جزء من العمل الإصلاحي الشامل حيث يدور في فلكه ويتوخى مقاصده وأهدافه.

والحق أنه لا يمكن حصر أهداف الجمعية في اتجاه واحد، فقاداتها كانوا يتظاهرون بأنها جمعية دينية تهذيبية لا غاية لها سوى تهذيب الشعب الجزائري المسلم وتربيته تربية إسلامية تتماشى مع المدنية الفرنسية ولا تعاديهما، لكن في واقع الأمر، جل أعمالها لا تخلوا من البعد السياسي التحرري كما سيأتي تبيانها لاحقا.¹⁰

إخفاء البعد السياسي عن نشاط الجمعية

أن معظم الكتاب يتفقون على أن الجمعية ولدت كجمعية دينية لا سياسية، وحجتهم في ذلك أنها لم تشير في قانونها الأساسي إلى أي بند يخص تعاطيها للسياسة

بصورة صريحة وعلنية ، بل وأبعد من ذلك ، حيث ورد في قانونها التأسيسي (البند الرابع) نفيها القاطع للخوض في المسائل السياسية أو الاشتغال بها ، وهذا نصه " لا يسوغ لهذه الجمعية بأي حال من الأحوال أن تخوض أو تتدخل في المسائل السياسية ولا تشتغل بها " ولكن هذا النفي القطعي بعدم الخوض في المسائل السياسية كما ورد في قانون الجمعية لم يكن بحسب العارفين بخبايا الجمعية ونوايا روادها ، سوى غطاء وتمويهها تخفي وراءه الأهداف الحقيقية التي كانت في جوهرها سياسية وطنية. وهذا ما أكده ووضحه البشير الإبراهيمي في قوله: " لقد وضع هذا القانون على قواعد من العلم والدين لا تثير شكاً ، ولا تخيف ، وكانت الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت تستهين بأعمال العالم المسلم ، وتعتقد أننا لا نضطلع بالأعمال العظيمة فخبينا ظنها والحمد لله." ¹¹

وفعلاً ، كثيراً ما تمثلت الاهتمامات السياسية في شكل رسائل مشفرة يتضمنها الخطاب الديني والتربوي الصادر عن الجمعية ، فجل خطاباتها على سبيل المثال ، لا تكاد تخلو من عبارات الوطنية والهوية والتاريخ والحرية تمجيداً وتخليداً ، كما لا تخلو من عبارات الاستعمار والظلم والاستبداد والتفريق بين فرنسا الديمقراطية وفرنسا الاستعمارية ، ومحاولة توظيف هذا التناقض في داخل المؤسسة الكولونيالية بذاتها في خدمة القضايا الوطنية. وليس من باب السذاجة السياسية بأن اتخذ ابن باديس في هذا المقام ، شعاراً بارزاً لصحيفة المنتقد فحواه: " سعادة الأمة الجزائرية بمساعدة فرنسا الديمقراطية" سالكا بذلك مسلك المهادنة والمراوغة السياسية. وقد لاحظ المعاصرون الفرنسيون أن العلماء ، بهذه الطريقة (عدم الجهر بانشغال الجمعية بالسياسة) ، قد أدخلوا " بيداغوجية وطنية" جديدة في نشاطها الديني والتربوي ، وهذا ما ذهب إليه المؤرخ الفرنسي " ديبارمي (Deparney) حيث قال: " ابن باديس استعمل هذه الطريقة الجديدة (البيداغوجية الوطنية) في محاضراته في الجامع الأخضر لكي يعد طلابه لمسؤوليتهم الوطنية." ¹²

ويسير أندري نوشي (-André Nouschi) المؤرخ الفرنسي بدوره في نفس اتجاه ديبارمي بخصوص إخفاء البعد السياسي عن نشاط الجمعية ، حيث ذكر في كتابه بعنوان " ميلاد الوطنية الجزائرية من 1914 حتى 1954 «بأن» برنامج التعليم الذي وضعته الجمعية يؤدي بطريقة أو بأخرى الى إحياء الفكرة الوطنية لدى الجزائريين ، رغم أنه لا يؤكد صراحة على أن الجمعية كانت تعمل على استقلال الجزائر عن فرنسا." ¹³

ونفس الرأي طرحته الكاتبة الأمريكية جوان غيلسبي (GillespieJoan) في مؤلفها بعنوان "الجزائر الثائرة" حيث كتبت في هذا الصدد تقول: "أن عقيدة العلماء كانت دينية في أساسها ولكن بمفاهيمها السياسية، عملت على أيقاظ المشاعر الوطنية عند جماهير الجزائريين" ¹⁴.

وتأسيسا على ما تم طرحه سلفا، نستخلص بأن الإصلاح الديني والتربوي الذي قدمته الجمعية في سلم أولوياتها ضمن مشروع الإصلاح الشامل، يحمل في طياته البعد السياسي التحرري الذي كانت تهدف إليه من وراء المقاصد الدينية والثقافية. فعلماء الجمعية، بهذا المنطق، ظلوا يؤكدون بأن النهضة العلمية والدينية في الجزائر لا يمكن أن تكون بمعزل عن السياسة، وها هي تقارير الشرطة ومصالح الشؤون الأهلية الاستعمارية نفسها تعترف بانشغال الجمعية بالمسائل السياسية تحت غطاء النشاط الديني والتربوي، واتهام أعلامها بالارتباط الخارجي لاسيما برواد الجامعة الإسلامية والعربية وتأثيراتهم أمثال (جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، رشيد رضا، شكيب أرسلان ...) وعن تخوف الأوساط الاستعمارية من نشاط الجمعية وأهدافها ذات البعد السياسي، يقول البشير الإبراهيمي، معلقا على ما جاء في تقارير المستعمر ما يلي: "يقول الاستعمار في معرض التبرم والسخط عليها، أنها جمعية سياسية في ثوب ديني، وأنها تتستر القومية بستار الدين، وتخفي الوطنية بخفاء العلم والعربية" الى أن يقول في الأخير: "أنها تستخدم سياسة أجنبية وتعمل للجامعة العربية أو الإسلامية." ¹⁵.

ها هو ابن باديس رائد الجمعية وقائدها يعترف بنفسه بهذه المزوجة بين الإصلاح الديني والتربوي وبين الإصلاح السياسي التي تتميز بها الجمعية في نشاطها الدؤوب، وذلك في رده على تصريحات الوالي العام الفرنسي في الجزائر الذي اتهم جمعية العلماء بأنها تمارس السياسة"، وبهذا العمل يضيف الوالي، "فقد خرجت عن وظيفتها الدينية والاجتماعية". وجاء الرد من ابن باديس في شكل أسئلة استنكارية نقلتها صحيفة "الصراف السوي" لسان حال جمعية العلماء وهذا نصه: "ما هذا العيب الذي يعاب به العلماء المسلمون إذا شاركوا في السياسة؟ فهل خلت المجالس النيابية الكبرى والصغرى من رجال الديانات الأخرى؟ وهل كانت الأكاديمية الفرنسية خالية من آثار الوزير القسيس ريشليو؟ أفيجوز الشيء ويحسن إذا كان من هناك ويحرم ويقبح إذا كان من هنا؟" ثم يجيب ابن باديس عن هذه الأسئلة

الاستكارية: "كلا، لا عيب ولا ملامة وإنما لكل أمرئ ما أختار، ويمدح ويذم على حسب سلوكه في اختياره."¹⁶

مظاهر تعاطي الجمعية للعمل السياسي

أن المتمعن في المشروع النهضوي للجمعية وما جسده أعضائها من أقوال وأعمال في سبيل نهضة الأمة الجزائرية، يجد أنها تعاطت السياسة بمفهومها وأساليبها الخاصة كما أسلفنا الذكر. فمن منطلق أن احتلال فرنسا للجزائر كان شاملا، مس الأرض والإنسان والمعتقد، فحتما تكون المواجهة معه، بمنظور أعلام الجمعية، مواجهة شاملة تتعدى المجال الديني والتربوي المحض لتشمل الميدان السياسي لكن دون الجهر بهامشية من تعرضها للحل، وبالتالي تحرم مئات الآلاف من الأطفال الجزائريين من التعليم والتربية الوطنية ببعديها الإسلامي والعربي، لاسيما وأن الرهان كله منصب على إعداد جيل من الشباب الجزائري متعلم، واعي ومعتز بهويته وانتمائه للحضارة العربية الإسلامية، ومتشبع بالروح الوطنية.

1/ إعادة بعث عناصر الهوية الجزائرية

لقد حضي بعد الدفاع عن الهوية الجزائرية في خطابات ونشاط الجمعية بمكانة متميزة طمس أحد معالم الهوية إن السياسة هي القدرة على التكيف مع مقتضيات الواقع، والقدرة على إيجاد البدائل الناجعة للمشكلات المجتمعية، وهذا يستوجب بالضرورة مستوى راقيا من الأداء السياسي في جميع الأحوال والظروف. ونستشف من قول الإبراهيمي أن الجمعية كانت واعية بتحديات المرحلة ورهاناتها وسبل مواجهة مشكلاتها، فالتحرر من السيطرة الاستعمارية بمنظور روادها، يمر حتما بإعادة بعث لمقومات الشخصية الجزائرية وصيانتها التي جندت فرنسا كل طاقاتها في سبيل محوها من الوجود بمنطق أن "الجزائر هي قطعة من فرنسا"، وأنها جاءت إلى الجزائر بعقلية الاستيطان فيها، وتثبيت أركانها ولغتها وديانها وعاداتها وكل ما يتصل بهويتها القومية، وذلك على حساب هوية ومقومات الشعب الجزائري المسلم.

والمؤكد أن العمل من أجل اختراق الإنسان الجزائري والمس بقيمه التاريخية، قد شكل مقوما أساسيا من مقومات تفكير الاستعمار الفرنسي وممارساته، وذلك بمنطق أن احتلال فرنسا للجزائر لم يكن أحادي الأبعاد، بل كان احتلال شاملا مس الإنسان والأرض وديانة شعب ولغته وتاريخه وذاكرته... ونلتمس هذه الشمولية للاستعمار الفرنسي للجزائر في طبيعة المشاريع التربوية والتعليمية المعتمدة من قبله في الجزائر في عهده (تعليم علماني ذو خلفية مسيحية) حيث تعد المدرسة ثالث ركيزة اعتمد عليها المستعمر الفرنسي بعد الغزو العسكري ومصادرة الأرض بهدف اكتمال

بنائه وتحقيق مشروعه الاستيطاني . وعن دور المدرسة في العملية الاستعمارية يقول النائب روزي (Rozié): " اسمحو لي أن أخبركم أن المهمة التي يقوم بها المدرس الذي بعثتموه هناك يقصد (الجزائر) تتحدد في هدفين: الأول له طابع تعليمي محض، أما الثاني، فهو الذي أسميه بالمهمة الدعائية ذات النفوذ والتأثير الاستعماريين"¹⁷

وليس من باب الصدف بأن صادف ميلاد الجمعية مع تنظيم فرنسا بمناسبة مرور قرن كامل على احتلالها للجزائر (1830-1930) احتفالات ضخمة، أظهرت خلالها حقدتها واستفزازها للأمة الجزائرية عبر إعلانها أنها طمست وللأبد " معالم الهوية للشخصية الجزائرية " لتحل محلها " الهوية الفرنسية الصليبية"، وهذا ما ورد عبر لسان قادتها بالمناسبة " أن احتفالنا اليوم ليس احتفالا بمرور مائة عام على احتلالنا الجزائر، ولكنه احتفالا بتشييع جنازة الإسلام فيها."¹⁸

وفعلا، مست هذه الاحتفالات الاستفزازية بالدرجة الأولى، مشاعر شريحة العلماء وأذكت فيهم روح الإحساس بالمسؤولية تجاه الأمة والوطن، ووعتهم بضرورة التحرك والتصدي للمشروع الاستعماري الفرنسي وأنقاض الأمة الجزائرية من الذوبان. لذلك سارع هؤلاء الى تأسيس جمعية بدل حزب سياسي، اعتبارا أن الحيز الذي تتحرك فيه الجمعية يكون أوسع وأشمل من نطاق الحزب، ثم أن الجمعية بتحديد أهداف إصلاحية بحتة وإخفاء تعاطيها للسياسة في قانونها الأساسي كما سبقا لإشارة إليه سلفا، قد يحرر نشاطها متعدد الأبعاد والغايات من المراقبة للصيقة ومضايقات أجهزة الإدارة الاستعمارية، بخلاف لو أقحمت نفسها في تعاطيها جهرا للمسائل السياسية أو تشكلت في شكل حزب سياسي كباقي الأحزاب الوطنية على اختلاف توجهاتهم الأيديولوجية والسياسة، ثموعيتهم التام بأن سبيل الخلاص والتحرر من السيطرة الاستعمارية، أن أجلا أم عاجلا، يمر حتما عبر إرساء نهضة شاملة يكون مدخلها الإصلاح الديني والتربوي، بداية بإعادة بعث عناصر الهوية الوطنية وترقيتها. هذه العناصر التي جمعها رائد الجمعية ابن باديس في الشعار المأثور عنه "الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر بلدنا". ويمثل الشعار المقومات (الثوابت) الأساسية للشخصية الجزائرية التي حاول المستعمر الفرنسي طمسها وإفراغها من محتواها، فحل محل اللغة العربية اللغة الفرنسية، والعقيدة الإسلامية باتت اسم بلا مضمون في صدور أهل البلد، وحل محل تدريس التاريخ العربي والإسلامي في المدارس، تاريخ فرنسا بشكل خاص وتاريخ أوروبا بشكل عام، وأدراكا من الجمعية لمكانة اللغة العربية في حفظ كيان الشعب الجزائري، فقد أولتها اهتماما كبيرا،

كون العربية لغة القرآن وما تحويه من حضارة وثقافة ولسان الأمة فهي تمثل سدا منيعا ضد فرض سياسة الفرنسة والتغريب على الشعب الجزائري. "أن الأمة التي تفقد لغتها بتعبير العلامة البشير الإبراهيمي، تفقد معها ثقافتها، وشخصيتها، بل وجودها كأمة متميزة".¹⁹

رافق ابن باديس دفاعه عن عناصر هوية الشعب الجزائري ثلاثية الأبعاد المجسدة في الشعار: "الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا" بتحريره للنشيد بعنوان "شعب الجزائر مسلم" الذي نال شهرة واسعة على المستوى الوطني، حيث صار ينشد في مدارسنا الى يوم الناس هذا (سوف نورد بعض من مقاطعه أدناه)، وقد بين فيه صاحبه مدى تمسك الجمعية بقضية الهوية الوطنية، وحرصها الكبير على عدم تفريط الشعب الجزائري في هويته، كما يعبر تعبيراً صادقاً عن نهجها في النضال الوطني، ومما جاء فيه:

شعب الجزائري مسلم والى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب
أورام إدماج له رام المحل من الطلب...

أن التركيز على رمزية الإسلام في هذا النشيد ودعوة الشعب الجزائري على التمسك به وعدم التفريط في دينه القويم يشكل في حد ذاته شكل من أشكال المقاومة ضد الاستعمار والتصدي لمخططاته الدنيئة، وذلك إدراكاً من رئيس الجمعية ابن باديس لمكانة الإسلام في حفظ كيان الشعب الجزائري وحمايته من خطر الذوبان أو الإدماج أو الفرنسة. وليس هناك ما هو ابغ للدلالة على حرص الجمعية في الدفاع عن مقومات الشخصية الجزائرية لاسيما رمزية المعتد "الإسلام" وذلك عند إصدارها للفتوى الدينية التي وصفت كل متجنس من الجزائريين المسلمين بالجنسية الفرنسية ب «المرتد» عن عقيدته الإسلام، وفي هذه الحالة، يحرم من الصلاة عليه عند موته وحتى دفنه في مقابر المسلمين،²⁰ وكل ذلك من أجل المحافظة على عروبة الجزائر وإسلامها ومن ثمة كيانها السياسي.

2/ تعجيد الوطن الجزائري

يحتل الوطن في قاموس الجمعية مكانة خاصة كونه يمثل هوية الأمة وماهية وجودها وتميزها عن الأمم الأخرى، وإدراك ساكنيه لمعنى الوطن يعني إدراكهم لذواتهم التي لا شأن لها إلا به وفيه كما يشير إلى ذلك العلامة محمد عبده في قوله: "لا حقيقة له (أي الوطن) إلا بهم وفيهم، ولا رفعة فيه إلا ومنهم ولهم".²¹

بهذا المعنى، يرمز الوطن لدى رواد الجمعية إلى وحدة الجزائريين التي تجمعهم نفس الخصائص والصفات التي تجعلهم يشكلون أمة متميزة عن سائر الأمم الأخرى. وأن الفرد لا يعلو شأنه حسب التعبير المشاع، إلا بمقدار اعتزازه بهوية ومقومات أمته والانتساب إليها، حيث " ان الأمة التي لا تحترم مقوماتها من جنسها ولغتها ودينها وتاريخها لا تعد أمة بين الأمم".²² وتأسيسا على هذا المبدأ، فمن واجبات أفراد الوطن الواحد في هذه الحالة، حماية وصيانة صرح الوطن من دسائس الاستعمار ومخططاته. ونسوق في هذا المقام معنى ومكانة الوطن لدى رائد النهضة والإصلاح عبد الحميد ابن باديس حيث ورد عته في هذا الصدد قوله: " الجزائر هي وطننا الخالص الذي تربطنا بأهله روابط في الماضي والحاضر والمستقبل بوجه خاص، وتفرض علينا تلك الروابط لأجله فروضا خاصة، لأننا نشعر أن كل مقوماتنا الشخصية مستمدة منه مباشرة " ويضيف ابن باديس في موضوع تمجيده " لوطن الجزائري" يقول: " أنما ينسب للوطن أفراده الذين تربطهم ذكريات الماضي ومصالح الحاضر وأمال المستقبل، والانتساب للوطن توجب على أفراد العلم بتاريخه، والقيام بواجباته من نهضة علمية واقتصادية وعمرانية، والمحافظة على شرف اسمه وسمعة بنيه، فلا شرف لمن لا يحافظ على شرف وطنه، ولا سمعة لمن لا سمعة لقومه..." ويختتم ابن باديس تشريحه للمبدأ " الجزائر وطننا " يقول: " وآننا نحب الإنسانية ونعتبرها كلا، ونحب وطننا ونعتبره منها جزءا، ونحب من يحب الإنسانية ويخدمها، ونبغض من يبغضها ويظلمها، وبالأحرى نحب من يحب وطننا ويخدمه، ونبغض من يبغضه ويظلمه".²³

بل وذهب رواد الجمعية الى أبعد من ذلك في تعاطيهم للمسائل السياسية والجهر بها في موضوع الوطن وتمجيده، وذلك بتشبيثهم بهوية الوطن الجزائري وخصوصيته، ومجاهرين " بأن الجزائر ليست هي فرنسا، ولن تكون فرنسا، ولا تستطيع أن تكون فرنسا ولو أرادت، بل هي بعيدة عن فرنسا كل البعد، في لغتها وأخلاقها، وفي عنصرها ودينها، لا تريد أن تندمج، ولها وطن محدد معين، هو الوطن الجزائري بحدوده المعروفة".²⁴

أكدت الجمعية من خلال جهرها بهذا الوصف، إنها تؤمن حق الإيمان بفكرة الوطن الجزائري المتميز عن الوطن الفرنسي، لذلك فقد جعلت كل نشاطها الإصلاحية مرتبطة بهذه الفكرة قاصدة أثبات الكيان الشخصي والسياسي للأمة الجزائرية كونها أمة لها أصول تاريخية وقومية عريقة لا تربطها أي رابطة بالقومية الفرنسية.

ويعترف الكاتب الفرنسي تيان لا كوتير (LACOSTIERE.T) للجمعية فضلها في أحياء مجد الوطن لدى شريحة واسعة من الشعب الجزائري لاسيما شريحة الشباب حيث يقول: " أن مجدي فكرة الوطن الجزائري هم بالأحرى الذين أسسوا جمعية العلماء، ويمكن أن نجد بيان هذا المذهب في رد ابن باديس على مقال فرحات عباس: (لو انني عثرت على الوطن الجزائري لكنت وطنيا...) ²⁵

ومن علامات تعاطي الجمعية للمسائل السياسية وبطريقة علنية في بعض الأحيان، كثرة المقالات ذات الطابع السياسي التحريضي التي كان يصدرها رجالها من حين لآخر في صحفها خاصة " البصائر" مما جعل كثيرا منهم يتعرضون الى عقاب السجن أو النفي أو حتى التصفية الجسدية كما حصل مع أحمد رضا حوحو، والشيخ العربي التبسي، والربيع بوشامة وآخرون لا يتسع المقام لذكرهم جميعا... ففي مقال للشيخ العربي التبسي على سبيل التذليل، الصادر في صحيفة "البصائر" يقول فيه: " القضية أيها السادة هي قضية انقلاب كامل، لا قضية إصلاحات جزئية، قضية شعب يريد دولة وحكومة وديمقراطية صحيحة، ودستورا يحقق سيادة الأمة، كل الأمة، لا يريد لقمة خبز لإسكات الجياع وحفنة من الرماد تذر في العيون." ²⁶

وليس هناك ما هو ابلغ للدلالة على تعاطي الجمعية للشأن السياسي جهرا، مشاركتها كحركة فاعلة في المؤتمر الإسلامي الذي تم عقده في 1936/06/07 بالجزائر (قاعة السينما الأطلس حاليا) بمعية النواب، والحركة الشيوعية الجزائرية، والشباب المسلم، حيث خرج المؤتمر بلائحة مطالب أحداها تعكس ما قامت من أجله الجمعية وهو الدفاع عن معالم الشخصية الجزائرية من دين ولغة وتاريخ وصيانتها، ورفض مبدأ التجنس بالجنسية الفرنسية حفاظا على الجزائر العربية المسلمة. هذا بالإضافة الى انضمامها الى كتل "أحباب البيان والحرية" الذي تأسس في ربيع عام 1944 بمعية النواب وحزب الشعب الجزائري، ومطالبه فاقت مطالب المؤتمر الإسلامي في الجانب السياسي حيث طرح مطلب الاستقلال بأقصى معانيه. ²⁷

ونستخلص مما سبق، أن الفكر التحرري الاستقلالي كان محل اهتمام ومسعى أغلب قادة الجمعية منذ تأسيسها، بل أن التأسيس نفسه جاء لهذا الغرض كما جاء تبيان سلفا. ونستشف هذا الفكر من خلال التصريحات الكثيرة والمواقف الصادرة عن رواد الجمعية في هذا المجال، وهذا بشهادة الكاتب محمد صالح رمضان الذي قال فيهم: " لقد اتفق رواد الجمعية الأوائل، بل المؤسسون لها على إخفاء البعد السياسي الثوري الذي يهدفون إليه وراء المقاصد الدينية والثقافية التي أعلنوها في قانونها الأساسي، وعملوا بها جهارا نهارا بحكمة في دائرة القانون الجاري به وقتئذ." ²⁸

وأبلغ شهادة في هذا المقام، فآن ابن باديس نفسه كان يؤمن آيمانا راسخا بحتمية استقلال الجزائر آن أجلا أو عاجلا، وقد ورد عنه في هذا الموضوع قوله: "آن الاستقلال حق طبيعي لكل أمة من أمم الدنيا، وقد استقلت أمم كانت دوننا في القوة والعلم والحضارة... وستصبح البلاد الجزائرية مستقلة استقلالا واسعا تعتمد عليها فرنسا اعتماد الحر على الحر."²⁹ ونفس القناعة تحلى بها معظم رفقاء ابن باديس ومنهم الشيخ العربي التبسي على سبيل الذكر الذي حكي عنه أنه خاطب في أحد مساجد مدينة وهران في يوم 20 فيفري 1954 أي قبل اندلاع ثورة التحرير بشهور قائلا: "سوف يأتي يوم تضطر فيه فرنسا إلى الرحيل وعلى المسلمين أن يتوحدوا بلوغ الهدف."³⁰

وهكذا، وتحت ستار العمل الديني البحث، ونشر التعليم والتهديب بين أطفال الجزائر، ودروس الوعظ والإرشاد للكبار، اقتحمت جمعية العلماء ميادين السياسة وذلك بتوجيه الشعب الجزائري توجيها عربيا إسلاميا وطنيا يناقض سياسة الاحتلال ويناهض أساليبها. ولا نبالغ إذا أكدنا أن تمسك الشعب الجزائري بقيمه الثقافية الأصيلة وركائز انتماؤه الحضاري العربي الإسلامي العريق والدرجة الرفيعة في وعيه السياسي، هو الذي مكن طليعته المجاهدين من مقاومة الاحتلال الفرنسي طوال نصف قرن بدءا بالمقاومة السياسية وانتهاء بالثورة التحريرية. وهذه هي قناعة المؤرخ الأستاذ ناصر سعيدوني الذي ورد عنه في هذا المقام قوله "وإذا كان الجناح الاستقلالي قد رفع راية الاستقلال، فآن جمعية العلماء وضعت الأسس التي يقوم عليها الاستقلال، وهو آحياء الشعب الجزائري في إطار العربي الإسلامي، وآنه من السهل إقامة دول، لكن من الصعب آحياء أمم، وهذا الصعب هو ما قامت به جمعية العلماء."³¹

المنهج الإصلاحي الباديبي

استوعبت جمعية العلماء عبر رائدها وقائدها ابن باديس الواقع الجزائري بكل تجلياته واستوحت من خلاله الحلول الممكنة وآلياته لتخليص الشعب الجزائري من التسلط الاستعماري ذات الرأسين (أجنبي من جهة، ومحلي من جهة أخرى) كما جاء في توصيف البشير الإبراهيمي في هذا الشأن، وقد سبق وأن أشرنا الى ذلك سلفا.³²

وبناء على تشخيصها لهذا الواقع، تعاملت الجمعية مع تحدياته بواقعية براغماتية، وعقلانية وبعد النظر، حيث جعلت من الإصلاح الديني والتربوي المدخل الأساسي للإصلاح السياسي والمدني تأثرا بالحركة الفكرية والإصلاحية في المشرق العربي عموما وبالنهضة المصرية والأنموذج الأوروبي خاصة وقد سبق ذكره سلفا. واستئناسا بهذه التجربة (النهضة العربية والأوروبية) سارت الجمعية على هذا النهج، حيث وجهت كل نشاطها نحو بناء القاعدة الصلبة أي بناء الإنسان الواعي

المتعلم المتمسك بخصوصيته الدينية واللغوية والثقافية وحبه للوطن. وبعبارة أخرى سارت الجمعية في عملها الإصلاحية على مراحل، بدءا بتحرير العقول والأرواح من الجهل والشعوذة قبل الوصول الى تحرير الأوطان والأبدان من الاستبداد والاستعمار كما سيأتي تبياناه لاحقا. وعليه، وبناء على هذه المقدمة، يتضح أن الجمعية قد بنت فلسفتها الإصلاحية على متغيرين أساسيين وهما: الواقعية والمرحلية.

1 / الواقعية

نقصد بالواقعية انطلاق الجمعية من الواقع الجزائري محاولة تشخيص اللعل التي يشكو منها المجتمع الجزائري، حيث أدركت أن علة اللعل التي تحول دون تحرير الجزائر من قيد الاستعمار وتعيق سيرورة المجتمع الجزائري نحو تحقيق هذا الهدف، تكمن فيما يسمى " بقابلية الاستعمار" بالتعبير المالكي (مالك ابن نبي) نظير الفساد الذي حل بالمجتمع، أحد أسبابه اشتداد الحركات الصوفية المنحرفة في الجزائر، وازدياد نشاطها وتكاثر طرائقها الملوثة بالشوائب والبدع والخرافات، مستغلة ظاهرة شيوع الجهل والامية في الوسط الشعبي بفعل سياسة التجهيل العمدي المكروسة من قبل المحتل الفرنسي، بحيث وصلت نسبة الامية بعد مرور قرن من الاحتلال باعتراف الرسميين الفرنسيين أنفسهم إلى رقم مذهل ثمانين بالمائة في أوساط الجزائريين من صنف الذكور، ناهيك عن صنف الإناث من الجزائريات. وهذا بعد ما كانت الامية شبه منعدمة في الوسط الشعبي قبل الاحتلال، وهذا بشهادة الكتاب الفرنسيين أنفسهم.³³ وعليه، فالعلاج القويم والعاجل في هذه الحالة في نظر رواد الجمعية، يتمثل في القضاء على تلك العلة من أساسها، علة التخلف والجهل والجمود التي سكنت الفرد الجزائري وعطلت نهضته وتحرره، فلا يمكن لمجتمع يعيش أفراده كل مظاهر التخلف والانحطاط أن يخوض غمار الثورة ويصبو الى تحرره واستقلاله. فالتغيير السياسي بمعناه الشامل لن يتم الا عن طريق إرساء لنهضة تربوية فكرية وثقافية تحرر العقول وتنورها، وهو ما عبر عنه مالك بن نبي بقوله: " أن القضية عندنا منوطة أولا بتخلصنا مما يستغله الاستعمار في أنفسنا من استعداد لخدمته." أو كما قال أحد المصلحين: " أخرجوا المستعمر من أنفسكم يخرج من أرضكم."³⁴

وعليه، فالرهان الذي حددته الجمعية ضمن أجندتها يتمثل في بناء نخبة جزائرية واعية بمركزها ودورها كطليعة للمجتمع الجزائري حاملة لرسالة العلم ونشره على أوسع نطاق مجسدة بذلك شعار الجمعية " الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا ". ويوضح الإمام ابن باديس في خطاب وجهه لثلة من العلماء يشرح حالة البلاد والعباد في ظل سياسة الاستعمار ويبث فيهم أفكار ثورية ناقدة للوضع

ويشعرهم بمسؤوليتهم تجاه الأمة والوطن معا ومما جاء فيه " ... قد شاء الله أن يهيئكم ويذخركم لهذا الظرف لتتحملوا مسؤوليتكم بكل شجاعة وتضحية، وأن يومكم هذا لشبيهه بذلك اليوم الذي وقف فيه البطل المجاهد طارق بن زياد خطيبا في جيش المجاهدين المرابطين على ربوة جبل طارق بعد أن أحرق سفنهم التي حملتهم الى الجهاد في الأندلس، وقال قولته المشهورة " أيها الناس أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم غير الموت أو النصر. " ³⁵

وقد كان رواد الجمعية واعين كل الوعي بما تخبئه فرنسا الاستعمارية وما كانت تخطئه في سبيل محو وجود الكيان الجزائري الأصيل، وذلك عبر الطعن في هوية وقومية الشعب الجزائري واستبدالها بهوية وقومية الكيان الفرنسي.

2/ المرحلة

وضعت الجمعية "المشكلة الحضارية" كما أسلفنا الذكر، ضمن اهتماماتها الأولية، واعتمدت في سبيل معالجتها على مبدأ التدرج والمرحلة إدراكا منها لخصوصية الواقع الجزائري وتحدياته في ظل الاحتلال الفرنسي.

والقصد بالمرحلة في قاموس الجمعية النهضوي هو الأخذ بمبدأ ترتيب الأولويات في نشاطها متعدد الأبعاد والأهداف، وقد لخصها رواد الجمعية بالفكرة التي مفادها أن " تحرير الأبدان والأوطان من الاستعمار لن يتم الا بتحرير العقول والنفوس". فالأول هو أمل للثاني، بحيث لا يمكن للجزائر في تقدير علماء الجمعية أن تتحرر وتستقل من السيطرة الاستعمارية آلا إذا تحرر الشعب الجزائري من الأوهام والبدع اللتين تغذا بهما طيلة قرن من الزمن بفعل نشاط الطرق الصوفية الضالة. فالإصلاح في قاموس الجمعية هو الانقلاب على المفاهيم الخاطئة والسلوكيات الفاسدة السائدة آنذاك في وسط المجتمع الجزائري بفعل سياسة التهديم لأهم البنى التي مارسها المستعمر الفرنسي منذ احتلاله للجزائر وكرستها الطرق الصوفية المنحرفة بوعي أو بغير وعي. قراءة الجمعية للواقع بنظرة براغماتية استشرافية تنويرية، حيث اقتنع روادها بأن تخليص الشعب الجزائري من معاناة الواقع ومشكلاته ينطلق من داخل الأمة نفسها وذلك بالتشبث بوطنيته وقوميته العربية والإسلامية وما صاحبها من دين ولغة وتاريخ مشترك وعادات وتقاليده مميزة، فالتغيير الذي تشده الجمعية يبدأ من الذات نفسها، فاذا ما تحقق للشعب الجزائري الاستعداد الداخلي للتغيير أو بعبارة المفكر مالك بن نبي، التخلص من " القابلية للاستعمار" يمكنه عندها كسب معركة التحرير بشقيها المعنوي والمادي اقتداء بالأية الكريمة " ان الله لا يغير ما بقوم

حتى يغيروا ما بأنفسهم." (الرعد، 11) فالجسم المريض لا يمكنه أن يتحرر خارجيا إلا إذا تحرر داخليا كما يقال. ويصف ابن باديس هذا العمل المنهج الذي اعتمده الجمعية في نشاطها متعدد الأهداف، بأنه يتدرج ضمن العمل التحرري بمعناه السياسي حيث يقول في هذا الصدد: "أنني أحارب الاستعمار لأنني أعلم وأهذب ومتى انتشر التعليم والتهذيب في أرض أجذبت على الاستعمار وشعر بسوء المصير."³⁶ ونقل عنه أنه قال في محادثة شخصية بخصوص مبدأ الاستقلال وكيفية تحقيقه هذا نصه: "لعنة الله على من لا يعمل للاستقلال، أننا نعمل للاستقلال بالطرق الناجحة والمفيدة، أما الدعوة إليه مع الجهل فأنها تخب ولا تتجح، لأن السلطة الفرنسية تجد مبتغاها مع الجاهلين، آذ يسهل عليها تفريقهم عن الداعي".³⁷ ولم يكن الاحتلال الفرنسي في غفلة عن ذلك الدور، بل كانت أعينه السياسية والبوليسية والإعلامية تراقب أعمال الجمعية عن قرب، وذلك منذ تأسيسها لشعوره بخطورة الرسالة التي تؤديها، وأهمية الدور النهضوي والتعبوي التي كانت تقوم به، وخطر كل ذلك على الوجود الفرنسي في الجزائر، وقد عبرت عن ذلك صحيفة "L'Éco de paris" الفرنسية ونقلته صحيفة "البصائر لسان حال جمعية العلماء أنداك حيث جاء فيها "أن الحركة التي يقوم بها العلماء المسلمين الجزائريين تشكل أكثر خطرا من جميع الحركات التي قامت الى الآن، لأن العلماء المسلمون يهدفون من وراء حركتهم هذه الى هدفين كبيرين: أوله سياسي والثاني ديني. فهم لا يسعون الى أفشال سياستنا لأدماج الجزائر بفرنسا فقط، بل يفتشون في القرآن عن مبادئ استقلالهم السياسي."³⁸ ونفس الملاحظة خرجت بها التقارير السرية للبوليس الاستعمار يحول نشاط الجمعية الذي وصف بالخطر على الوجود الفرنسي في الجزائر، حيث نقرأ في أحدها في أوائل الخمسينات ما يلي: "أن العلماء أصبحوا يمثلون أكبر خطر على الفكرة الفرنسية في الجزائر، فشعب (جمع شعبية) مدارسهم عبارة عن خلايا سياسية، والإسلام الذي يمارسونه هو مدرسة حقيقية للوطنية، وأنهم يجدون تأثيرهم الأكثر لدى الأثرياء والعائلات الكبيرة وأصحاب المال، وأن أكثر من 40% من السكان معهم، وأن دل هذا على شيء فأنما يدل عن مدى تأثير العلماء على الجماهير الجزائرية..."³⁹

وفعلا، فقد شمل نشاط الجمعية متعدد الأبعاد إنشاء المدارس التي فاق عددها 181 مدرسة تستقطب ما يقرب 40.000 طالب بما فيها المعاهد العليا كمعهد عبد الحميد ابن باديس، ومعهد الكتاني بقسنطينة، ودار الحديث بتلمسان... ناهيك عن تأسيس فروع للكشافة الإسلامية التي تعد بحق مدارس للوطنية، حيث تكمن رسالتها في استقطاب عدد كبير من الشباب والقيام بعملية زرع في الناشئة حب الوطن

وتلقينهم مبادئ الحياة العسكرية، وفي هذا يقول أحد المنخرطين فيها: "كنا ندرس في الكشافة عند الطيب العقبي، وكان يخرج العلم ويقول: هذا هو العلم الجزائري بألوانه الثلاثة: الأخضر الإسلام والأبيض قلوبنا والأحمر الجهاد..." وحتى الأناشيد التي كان الشباب ينشدها في ظل النشاط الكشفي كانت تتضمن كلمات محظور تداولها في عهد الاحتلال حيث كان بعضها ينتهي بعبارة (فإذا هلكت فصيحتي تحيا الجزائر والعرب).⁴⁰

الخاتمة

سمحت لنا هذه الدراسة التي خصصناها لتشريح مدى تعاطي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين للعمل السياسي في ظل الاحتلال الفرنسي للجزائر، وطريقة التعامل التي انتهجتها في سبيل أرساء نهضة شاملة تعيد إصلاح وبناء مجتمع متجدد وقوي، متسلح بالعلوم العصرية ومتشبع بالثقافة العربية الإسلامية والمبادئ الوطنية وبالفكر التحرري، ومتطهر من كل الأمراض الاجتماعية والبدع، وخرافات الدروشة التي حالت دون يقضته وتحرره من قيد الاستعمار. تعاملت الجمعية مع واقع المجتمع الجزائري السائد آنذاك بحكمة وتبصر، وانتهجت في ظل هذا الواقع على مقارنة نفعية براغماتية لعلها تساهم في حل إشكالية الإصلاح الشامل، حيث اعتمدت في سبيل ذلك على منهجية ترتيب الأولويات، وجعلت من الإصلاح الديني والتربوي المدخل الأساسي للإصلاح السياسي والمدني المنشود.

أولت الجمعية المسألة الدينية والتربوية أولوية مطلقة. فعلمائها أدركوا أن تفعيل النشاط الديني والتربوي قادر وحده على إنشاء جيل جديد متشبع بقيم مجتمعه ومتأصل بقيم ورموز وطنه ومستعد للتضحية في سبيل حرية واستقلال وطنه. ويكفي الجمعية فخرا أنها نجحت بفضل نشاطها متعدد الأهداف في صناعة هذا الجيل من الشباب المسلم الذي حمل على عاتقه واجب التضحية في سبيل وطنه.

ونختم دراستنا بسرد ما قاله أحد الكتاب (محمد بومشرة) في حق هؤلاء العلماء الذين جاهدوا بالكلمة والقلم في سبيل نهضة الأمة الجزائرية بمعناها الشامل ومما ورد عنه قوله: "...وواجب الشكر والثناء الحسن لعملاء الجمعية معقود بنواصي الأجيال المتلاحقة للأمة الجزائرية على ما بذلوه من جهد، علموا الجاهل، وأرشدوا التائه، وألجموا المغتر، وحرروا المستعبد، وشحذوا الهمم، فجاء رجال آخرون، قطفوا الثمرة، وأعلنوا الثورة، فرحم الله الأولين بما زرعو، وجزى الآخرين بما حصدوا، وكلا وعد الله الحسنى."⁴¹

الهوامش

- 1- المجاهد الأسبوعي "حوار مع المناضل ابن طوبال" عدد 1517، نوفمبر 1989، ص 52.
- * رمزية الحدث هنا يتمثل في بداية النهاية للوجود الاستعماري في الجزائر، حيث بدأ التفكير الجدي في التحضير للعمل الثوري كخيار استراتيجي للوصول الى هدف استرجاع السيادة الوطنية المسلوقة. لهذا الغرض تم تأسيس " المنظمة الخاصة " الجناح العسكري لحزب الشعب /حركة انتصار الحريات الديمقراطية وذلك عام 1947، مهمتها التحضير الفعلي للعمل المسلح.
- 2-البشير الإبراهيمي أثار الإمام الإبراهيمي - من جمع وتقديم نجله احمد طالب الإبراهيمي ج 4 دار المغرب الإسلامي، بيروت، 1997 ص 170.
- 3-البشير الإبراهيمي: عيون البصائر، الجزائر، دار الأمة للنشر والتوزيع، 2007، ص 45.
- 4-موسوعة العلوم السياسية، جامعة الكويت نقلا عن معجم روبر
- 5- شهدت منطقة المشرق العربي مع بداية القرن العشرين حركة إصلاحية نشطة كان لها الفضل في زرع للأفكار النهضوية التحررية والمبادئ الإصلاحية في عموم البلاد الإسلامية. ويذكر محمد دبور في هذا الصدد "أن نهضة مصر، وصدى زعمائها مثل الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا كان لها أبلغ الأثر في نفوس الجزائريين، وأهل المغرب عموما، إذ اعتبر هؤلاء نهضة مصر بمثابة نهضة الإسلام كله وجهادا للعدو المشترك، وكونهم كانوا يقرؤون في نشوة وحماس جرائد مصر ومجلاتها، فقد وجدوا فيها تعبيراً عن رغباتهم وأحاسيسهم وآمالهم وألهمهم".
- 6 - يعرف "عصر التنوير «على أنه "حركة سياسية واجتماعية وثقافية وفلسفية واسعة ظهرت خلال القرن الثامن عشر في أوروبا، هدفها تنوير العقول من الظلام والجهل والخرافة معتمدة على الاستخدام الصحيح للعقل. شكلت هذه الحركة الإطار الفكري والفلسفي للثورة الفرنسية وللثورة الأمريكية، كما مهدت هذه الحركة التنويرية لنشؤ الرأسمالية ثم الاشتراكية...تعريف ويكيبيديا " الموسوعة الحرة".
- 7- يقصد البشير الإبراهيمي بمفهوم "تسلط الاستعمارين" الاستعمار الأجنبي أو المحتل الفرنسي ومشاريعه الهدامة لكيان الوطن الجزائري ولخصوصية الشعب الجزائري العربي المسلم، والاستعمار المحلي الذي تمثله الطرق الصوفية الضالة واعتبارها علة الغلل في الفساد ومنع كل الشرور بالتعبير الخطابى للجمعية. طالع كمال عجاني: " مساهمة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحفاظ على الهوية الوطنية." مجلة العلوم الإنسانية، عدد 16 ديسمبر 2001، جامعة منتوري، قسنطينة، ص103. وأيضا عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى (1931-1945) الجزائر، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، 2013 ص.278
- 8- عيون البصائر، ط2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص39.
- 9- وزارة الشؤون الدينية: آثار ابن باديس، قسنطينة، دار البعث، 1982، ص158.
- 10- ابن باديس: الشهاب، المجلد 11 الجزء 3، قسنطينة نجوان 1935، ص63. عبد الكريم بوصفصاف المرجع السابق ص147
- 11 - عبد الكريم بوصفصاف المرجع السابق، ص 138

- 12- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية. ط3. ج2. الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. 1983. ص424 .
- 13- عبد الكريم بوالصفا، المرجع نفسه، ص 18.
- 14- عبد الكريم بوالصفا: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1945، الجزائر، عالم المعرفة، الطبعة الأولى، 2008، ص 18
- 15- البشير الإبراهيمي: "عيون البصائر" الجزائر، دار الأمة، 2007 ص 40-41.
- 16- "الصراط السوي" ال عدد15، 25 ديسمبر 1933.
- 17- عبد القادر حلوش: الدور الاستعماري للمدرسة الفرنسية في الجزائر أثناء الاحتلال، مجلة الذاكرة، العدد الخامس، اوت 1996، المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، ص 80 .
- 18 --نبيل احمد بلاس: "الاتجاه العربي الإسلامي ودوره في تحرير الجزائر" القاهرة، جامعة الزقازيق، الهيئة المصرية للكتاب، 1990، ص 57.
- 19-تركي رابح:التعليم القومي والشخصية الوطنية، الجزائر، الشركة الوطنية والتوزيع، 1975، ص 327.
- 20- طالع جريدة البصائر، عدد 194، قسنطينة 7 جانفي 1938، ص2.
- 21-محمد عمارة: محمد عبده: الأعمال الكاملة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ج 1، 1972، ص.
- 22 عبد الله شريط: مشكلة الحكم في دولة الأمير ونظرية ابن باديس، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة، الجزائر، العدد 75، جوان 1983، ص 249.
- 23-محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 6، 1983، ص 82.
- 24-محمد محمد حسين: نفسه. ص 82.
- 25-عبد الحميد ابن باديس ردا على المقال الذي كتبه فرحات عباس في الثلاثينات من القرن الماضي أنكر فيه وجود الأمة الجزائرية كشخصية مستقلة وتمييزة عن شخصية الأمة الفرنسية ووطن جزائري مستقل عن الوطن الفرنسي. طالع النص الكامل للمقالين في مجلة "الشهاب" م12، ج1، قسنطينة، أفريل 1936، ص 43-44. أو طالع في هذا الصدد رابح تركي: " الشيخ عبد الحميد بن باديس: رائد الإصلاح الإسلامي والتربية"، الجزائر، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، 2001، ص289
- 26-بوالصفا مرجع سابق. ص 86
- 27- تشكل أحباب البيان والحرية ردا على رفض الحكومة الفرنسية لمطالب النخبة الجزائرية التي تضمنها "بيان الشعب الجزائري" الذي حرره فرحات عباس في 1 فيفري 1943 ووجهه الى كل من الجنرال ديغول والرئيسين الأمريكي روزفلت، والإنجليزي تشرشل. وتضمن البيان مقدمة وأربعة فصول، وهذا ملخصه: وتضمن البيان مقدمة وأربعة فصول، وهذا ملخصه:
- آدانة الاستعمار وتحطيمه، أي القضاء على كل مظاهر الاستغلال للشعب الجزائري،
 - المطالبة بتطبيق مبدأ تقرير المصير لكل الشعوب الكبيرة والصغيرة،
 - إعطاء الجزائر دستورا خاصا بها يضمن لها الحرية والمساواة المطلقة بين جميع سكانها بدون تفرق في العنصر أو الدين.

- وردا على مطالب البيان، أصدرت الحكومة الفرنسية (اللجنة الوطنية للتحرير الوطني برئاسة الجنرال ديغول) ال 7مارس 1944 الذي يشبه في مضمونه ما تضمنه مشروع بلوم فيوليت لعام 1936، حيث أعطى حق اكتساب الجنسية الفرنسية لبعض الفئات الجزائرية، ولم يجب على مطالب البيان. وكان رد فعل ممثلي التيارات الوطنية (فرحات عباس والبشير الإبراهيمي ومصالي حاج) أن اتفقوا على تأسيس تكتل وطني أسموه أحباب البيان والحرية وذلك يوم 14 مارس 1944 أي بعد صدور الأمر 7 مارس المذكور أعلاه بأسبوع.
- 28- محمد الصالح رمضان جمعية العلماء ودورها العقائدي والاجتماعي والثقافي، مجلة الثقافة، عدد83، سبتمبر-أكتوبر 1984 ص 360.
- 29 - بوالصفا، مرجع سابق، ص 321.
- 30- بشير سعيدوني، مرجع سابق، ص 275.
- 31- المجلس الأعلى للغة العربية: دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحفاظ على اللغة العربية. أعمال ندوة، الجزء الأول، منشورات المجلس، 2016، ص 279.
- 32- راجع محور "السياسة في أدبيات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين".
- 33 - طالع في هذا الصدد تركي رابح: التعليم القومي والشخصية الوطنية، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1975.
- 34- عبد الكريم بوالصفا، الطبعة الأولى، مرجع سابق، ص 102-103.
- 35- البشير الإبراهيمي: "عيون البصائر" الجزائر، دار الأمة، 2007 ص 40.
- 36- شهدت منطقة المشرق العربي مع بداية القرن العشرين حركة إصلاحية نشطة كان لها الفضل في زرع للأفكار النهضةية التحررية والمبادئ الإصلاحية في عموم البلاد الإسلامية. ويذكر محمد دبور في هذا الصدد "أن نهضة مصر، وصدى زعمائها مثل الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا كان لها أبلغ الأثر في نفوس الجزائريين، وأهل المغرب عموما، إذ اعتبر هؤلاء نهضة مصر نهضة الإسلام كله وجهادا للعدو المشترك، وكونهم كانوا يقرؤون في نشوة وحماس جرائد مصر ومجلاتها وجدوا فيها تعبيراً عن رغباتهم وأحاسيسهم وآمالهم والأمهم". طالع في هذا الصدد: محور «بوادر النهضة وأصول الحركة الإصلاحية في الجزائر» للكاتبة عبد الكريم بوالصفا، المرجع السابق، ص 51-78
- 37- عبد اللطيف بن علي السلطاني، محادثة شخصية، الجزائر، 8 ماي 1936. نقلا عن بوالصفا: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1945، الجزائر، عالم المعرفة. 2009. ص 300-301.
- 38- بشير سعدون، مرجع سابق، ص 280. (البصائر العدد 61 2 أفريل 1957 ص. 2)
- 39- أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص 101.
- 40- مؤسسة مفدي زكرياء، العلم الوطني: تاريخ ومسار، مطبوعة الفنون الجميلة، الجزائر، 2012 ص 52.
- 41- محمد بومشرة، محاضرة بعنوان: "رسالة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أقيمت يوم العلم بتاريخ 2010/04/16 نقلا عن بشير سعدوني، مرجع سابق، ص 286.